الحقيبة النسائية

تاريخ ودلالات

إلهام كلاّب

كنت لا أزال شابة في ستينيات القرن الماضي، عندما قادني فضولي إلى دخول مسرح الأوديون في باريس لحضور مسرحية صاموئيل بيكيت: «آه أيتها الأيام السعيدة!..» ''Oh! Les beaux jours''

كانت الممثلة الرائعة مادلين رينو، وطوال المسرحية، تبعثر محتوى حقيبة يدها على المسرح لتستخرج منها قصة حياتها. وبينما كانت تغرق أكثر وأكثر في رمال الذكريات وغبار الأيام ووحشة العمر، كانت الحقيبة تطفو وكأنها المحاور الوحيد، وموقع البداية والنهاية في مسار كل المسرحية كما في حياة البطلةويني.

عندما خرجت من المسرح، رمقت حقيبتي – وكانت مجرد كيس مزخرف بهيبية الستينيات – بتعجّب الصبا المتعجل وقلت لنفسي: «أكلّ هذا في الحقيبة؟».

وبعدما مرت السنوات وتراكمت في ذاكرتي – كما على مدى أيامي – ذكرى كل الحقائب التي حملتها والتي رافقت أحداث حياتي، طفت على ذهني استغاثات مادلين رينو، واستوعبت عمق العلاقة التي تربط النساء بحقائبهن، آخر حديقة سرية لهن في هذا العصر.

فما الذي يعطي الحقيبة صفة التطابق مع حياة النساء في تمثلاتها الواقعية والرمزية، البائسة والجميلة؟

١- تاريخ حديث:

ان حقيبة اليد هي بالتأكيد امتداد عملي لذراع النساء وأجسادهن. فهي البيت المتنقل للنساء العاملات، هي البطن الذي يخبئ، هي الغرفة الخاصة بأدوات التجميل واشياء النساء الحميمة، هي مخبأ الرسائل والأوراق العابرة، هي بالتحديد المال الخاص، وإمكانية حرية أنفاقه.

فتاريخ الحقيبة النسائية كما نعرفها اليوم، إنما هو تاريخ استقلال المرأة وعلاقتها بالعالم المعاصر، لا بل تاريخها المعاصر في ملكية المال وفي حرية استخدامه، ولذا فهو وإن يعود في بعض مظاهره إلى العصور القديمة، إنما هو تاريخ حديث تجلى مع خروج النساء إلى الحياة العامة، ودخولهن مجال العمل، وتعاملهن مع مال العصر الذي تحوّل مع تحوّل الأزمنة من ليرات ذهب إلى بطاقات تأمين.

٢- معضلة الأسماء:

ان التسميات تجعل من كتابة تاريخ الحقيبة، كتابة متوزعة، مشتتة ومتفرعة، في افصاحها المختلف عن مهمات هذا «الكيس» ومحتوياته ودوره وطريقة حمله.

وتتنوع دلالات الأسماء بتنوّع وظائف هذا «الكيس» وطرق حمله، وأوقات حمله، ونوعية محتواه، وأماكن حفظه. وتختلف في الغرب عنها في المشرق والمغرب وآسيا وافريقيا، لكنها تتشارك في هوية واحدة: هي تحتوي دوماً على ما نعتبره أساسياً للحياة أو للعمل، على ما نعتبره نادراً وثميناً، أو على ما نعتبره سلطة وسحراً.

في الشرق نجد الصرة، والقفة، والسلة والجراب، والكيس والصندوق والبقجة والشقبان، والكشه، والجيب، والحزام والضبوة، والشنطة والجزدان والمحفظة، كما نجد «أكياساً» خاصة للماء مثل القربه والراوي وللزبد مثل الأوكا والدبّا، وللحبوب مثل الميزوده، ولظهر الجمل مثل المزوال والعدل والخرج وغيرها.

وفي المغرب نجد الزبور والعقرب والشكاره. وفي الجزائر نجد الجبيرة والهجر عند الطوارق.. وغيرها من «الأكياس» التي رافقت الإنسان في خروجه وترحاله.

في الغرب، نجد الجيب وكيس الاحسان Aumônière وكيس المعصم Ballantine وكيس الرحالة Baluchon، وكيس الكتف المزدوج Besace والبورصة Bourse للمال والأختام والنذور ونجد الكيس الكبير Cabas وكيس الزنار escarcelle والكيس المخرّم Réticule، وكيس التطريز sac de broderie وكيس الماكياج minaudière وكيس البخيل لصعوبة فتحه Bourse d'avare. والكيس العربي sarrasin المستوحى من الحملات الصليبية على الشرق.

كما نجد حقائب السفر، وحقائب مهن الارتحال، كمهن البحار والراعي والجندي والتاجر وغيرها.. وتوفّر المراجع الغربية للباحث مادة غنيّة بسبب وفرة الدراسات، وغزارة المتاحف، والمجموعات الخاصة التي حفظت «الأكياس» القديمة.

في اليابان نجد بقجة الهدايا Furoshikis، و**في أفريقيا** نجد أكياس السحر وأكياس الكلام والأكياس الملونة التي تحملها النساء على رؤوسهن متدلية حتى الظهر والشبيهة **بأكياس المكسيك** المقدّسة baluchon التي تحمل على قمة الرأس.

وحتى أكياس آلهة اليونان التي تحوي الريح تحمل أيضاً أسماءها فهي Sakkos التي يحملها الإله Eole وهي Besace التي يحملها الإله هرمس Hermes حامي المسافرين والتجار الذي يشفع حتى بالسارقين.

ان هذا الاجتياز السريع لأسماء «أكياس» العالم يؤكد على أهميتها كشواهد انثروبولوجية واجتماعية هامة، تنبئ من خلال اسمها، وشكلها، ووظيفتها عن بيئتها كما عن التطوّر الاجتماعي والاقتصادي لكل هذه المجتمعات، وبالتحديد من خلال المقاربة والمقارنة في التطابق أو في الاختلاف.

٣- تاريخ «الكيس»:

إذا استنطقنا تاريخ الإنسانية القديم لوجدنا أن تاريخ الحقيبة إنما هوتاريخ انتقالها من أيدي الرجال إلى أيدي النساء، وتاريخ تحوّلها من داخل الثياب إلى خارجها، تاريخ انتقالها من أيدي العمال والفقراء والرحالة إلى أيدي الموسرين، قبل انتشارها و«دمقرطتها» في القرن العشرين، واستئثار النساء بها، واكتنازها للتمثلات النفسية والدلالات الاجتماعية.

سنحاول بسرعة رصد هذا التاريخ من خلال مرحلتين:

مرحلة العصور القديمة، حيث نتعرّف إلى ما تقدمه لنا الحفريات الأتربة

والمتاحف وتاريخ الفنون والحضارات.

مرحلة العصور الحديثة، حيث نتعرّف إلى ما يقدمه لنا التاريخ والتراث والرسوم والصور الفوتوغرافية والروايات والأفلام ومشهد شوارع العالم المعاصر، وشهادات النساء في علاقتهن بالحقيبة.

أ- مرحلة العصور القديمة:

بدأت الحقيبة، مع بدايات الملكية، على شكل كيس يشبه الصرة المشدودة المصنوعة من الجلد أو من القماش. يحملها الرجال وتحتوي على ما يشكّل ثروة إنسان ما قبل التاريخ وسبل بقائه: أحجار الصوان وبعض المآكل، وربما بعض التعاويذ والحصى.

وإذا استنطقنا الحفريات الأثرية والمتاحف والمراجع القديمة لوجدنا في ما بين النهرين وفي محفورات جدارية في قصر أشور نازربال الثاني، وفي قصر سرجون الثاني صوراً لأشخاص مجنحين يحملون بأيديهم شكلاً يشبه حقيبة النساء الصغيرة المعاصرة، وبينما نجد فقط تمثالاً في تل حلف لإلهة – امرأة تحمل حقيبة، فإن التماثيل التي كانت توضع في أساس المعابد في أور، كانت تحمل سلة على الرأس. أما إلهة الخصب في ماري، فهي امرأة تحمل جرّة يتفجر منها الماء.

وستستعاد تاريخياً – وبكثرة – صورة الرجل حامل صرّة الثروة، وبالمقابل صورة المرأة حاملة السلة أو حاملة الجرّة في الشرق، قبل أن تعرف المرأة حقيبة اليد المعاصرة.

في مصر، نجد مزارعاً في رسم جداري من الأمبراطورية القديمة وهو يحمل كيساً معلّقاً برقبته، بينما تحمل امرأة على رأسها سلة القرابين، في مرحلة الأمبراطورية الحديثة.

وبينما يتقدم هرمس عند اليونان حاملاً على طية كوعه كيساً يحتوي رسالة زوس إلى العالم نجد بقايا أكياس وصرر من الجلد حفظت منذ القرن الرابع ق.م. تحت جليد روسيا، من حضارة الشيت.

أما في الحضارة الرومانية، فإننا نجد في محفوره جدارية من القرن الأول م. صورة امرأة تحمل حقيبة تشبه حقائب اليد المعاصرة، ونجد في الموزاييك من القرن الثاني م. رسوماً لنساء ترمز إلى الربيع وتحمل سلة، أو تحمل جرّة. ومن

القرن الثالث م. نجد لوحة تمثّل خادماً يتقدّم في خضم احتفال لمصارعة الحيوانات وهو يحمل صينية كبيرة، مُدّت عليها صرر المال لمكافأة المنتصرين، وقد كتب عليها رقم المبالغ المالية التي تحتويها.

أما إذا توجهنا إلى الآثار العربية الاسلامية وإلى المخطوطات القديمة، فإننا سنجد بالتحديد في قصير عمره الأموي – من القرن الثامن – رسماً جدارياً لامرأة تحمل سلة وفي قصر الحير الغربي – من القرن الثامن – رسماً لامرأة تحمل منديلاً وكأنه سلة تحوي ثمار الأرض.

وتبدأ الصور الإنسانية بالإنحسار عن الفنون الإسلامية بسبب تأويل النص الديني، ولذا نجد زخرفة خشبية فاطمية من القرن الثاني عشر تمثل رجلاً يحمل سلة على كتفه. وفي مخطوطات مقامات الحريري – من القرن الثالث عشر – نجد صورة فريدة لدكان يقف على بابه تاجر مع حمّال يحمل بقجة على الكتف وقد كتب اسمها بقربها وصورة لحمالين ينقلان سللاً على الكتف، وصورة لأبي الحارث في الحج وهو يحمل حقيبة على ذراعه.

وبالرغم من تطوّر العملة الإسلامية وانتشارها، وبالرغم من قصص التجار والخانات في التاريخ العربي، وبالرغم من كتب التاريخ التي تزخر بالأقوال: «فأمر له الحاكم بمئة دينار»، فإن النماذج البصرية للصرّة التي كانت تحتوي على المال والثروة نادرة جداً.

ولو تصفحّنا بتأن كل صور المنمنات الفارسية، فإن «الكيس» الوحيد الواضح إنما هو «جراب» سهام الفارس على متن الحصان.

ثم تنوّع تاريخ الحقيبة انطلاقاً من تنوّع الحضارات والقارات والبلدان، وتحت تأثير الظروف البيئية والاقتصادية والاجتماعية، والذائقة الجماليّة.

وعندما افتقدنا في الشرق النماذج التاريخية الباقية تجلّى لنا أن مفهوم الحفاظ على التراث اليوم هو وللمفارقة مفهوم حديث عندنا. ولعدم اهتمام المجتمع العربي بالأدوات اليومية العادية واستنطاقها لكتابة التاريخ، تندر المتاحف التي تحفظها والدراسات التي تهتم بوصفها وتحليلها. فنحن مع رياح الحداثة ومنذ بداية القرن الماضي، رمينا غالباً كل ما كان يذكّر في البيوت، بعيش الماضي وتقاليده. ولم تحفظ إلا الأشياء الثمينة أو الأواني والأدوات التي وعت قيمتها التراثية بعض العائلات.

ب- «الكيس» في الغرب:

لقد طغى التاريخ الأوروبي على النماذج التي حفظتها المتاحف، وأرّخ لمراحل تطوّر الحقيبة كما أثّر على نشر نماذجها في القرن العشرين.

لذا سنذكر سريعاً في البدء مراحله المتعددة قبل أن نتوقف مع ما توفر لنا من مراجع وصور لرسم تاريخ الحقيبة في الشرق.

من المال المخبأ في طيات الثياب والأكمام، إلى الجيب المخفي داخل الثياب، إلى الجيب الواضح الذي كان يعلّق بالزنار مع المقص والمفتاح، تحول «الكيس» في القرن الثاني عشر إلى ما يسمى كيس الاحسان المطرّز الذي يضفي على حمل المال معنى المساعدة والخير. وكان صغر الكيس مع دقة تطريزه يؤكدان على انتماء حاملته إلى الطبقات العليا بينما يشير كبر الكيس وطريقة حمله إلى انتماء حاملته إلى الطبقات العاملة.

ثم تنوّعت طرق الحمل، حسب الحجم، والطبقة، والوظيفة، وانقسم تاريخ الحقيبة منذ القرن السابع عشر بين الجنسين، فوضع الرجال أموالهم في جيب ملصق بالثوب لتحرير اليد، بينما وجدت النساء الحل في جيب يشبه الاجاصة ويعلّق على كل ورك تحت التنانير الواسعة المقوّسة.

ولكن مع ظهور موضة ثياب الأمبير في معرض باريس ١٧٩٠، وهي ثياب تنسدل مستوية من تحت الصدر حتى الأوراك، ظهرت الحاجة إلى «كيس» من نوع آخر، فظهرت الحقيبة النسائية المحمولة باليد والمسماة Réticule. سخرت منها الصحافة وأسمتها Ridicule أي المثيرة للسخرية وعلّقت احدى الصحف الإنكليزية على هذا التحوّل: «بينما تغرق أيدي الرجال في جيوبهم، تحمل النساء جيوبها».

ثم تسلمتها الموضة، فطوّرت في موادها وقبضاتها، وطرق فتحها واغلاقها. وفي سنة ١٨٠٥ كانت كل امرأة تخرج من بيتها تحمل حقيبة يد خاصة وقد استوحي شكلها من حقائب السفر المتينة، مع قفل ومفتاح ومقطع داخلي لحفظ الأموال الورقية.

في القرن العشرين أصبحت ماركة الحقيبة وعراقتها، وموضتها، توحي بثروة صاحبتها، أكثر مما تفصح عنها، وتحوّلت الحقيبة من اكسسوار إلى حاجة، وظهرت الايقونات الكلاسيكية للموضة عند مصممين كبار مثل فويتون Vuitton الذي كان يصنع حقائب سفر نابليون الثالث، وهرمس Hermes صانع السروج الارستقراطية

الذي استوحى أحجام حقائبه، من الحاجة العملية إليها على الخيل أو في السيارة، وبرادا Prada وغوتشي Gucci وفندي Fendi مع حقائبهم المتقنة التي ازدهرت بسبب قدرتها على التطوّر والتطابق المرن مع تحوّلات العالم الحديث.

فبعد الحرب العالمية الثانية، عندما تعذّر الحصول على الجلد، استخدم غوتشي Gucci القماش القطني وأخرجت شانيل Chanel السلاسل الذهبية من تايوراتها، لصنع قبضات حقيبتها الشهيرة في الخمسينات.

كما ظهرت حقائب خاصة للسهرات، كائنات الليل المزخرفة، والحقائب العبثية، والحقائب الأميركية الكلاسيكية المتوافقة مع حركة المرأة العاملة والعصر الاستهلاكي السريع.

وتأثرّت أحجام الحقائب وطريقة حملها بحركات تحرر النساء منذ بداية القرن العشرين، مع الحقيبة المعلّقة بين الكتف والورك لتحرير اليد على الدراجة أو في العمل. كما أثرّت حروب القرن العشرين وظهور المواد البلاستيكية منذ الثلاثينات وثورات الشباب منذ الستينات، وميل الثوب إلى البساطة منذ السبعينات، على أحجام الحقائب وموادها وأنواعها.

ولقد ارتبطت بعض حقائب القرن العشرين التي تجمع بين النوعية والندرة وعراقة التقنية بأسماء شخصيات نسائية جعلتها من رموز السلطة كما مع مرغريت تاتشر، أو من رموز الجاذبية، مع اللايدي ديانا وحقيبة ديور، وجاكلين أوناسيس وغريس كيلي وحقائب هرمس.

وترددت أسماء وأنواع الحقائب وألوانها ورمزيتها في العديد من الروايات الأدبية في القرن التاسع عشر عند بطلة تولستوي آنا كارنينا، وعند بطلات فلوبير وجورج صاند. وظهرت الحقائب في لوحات فنية عديدة للدلالة على الثروة، أو الفضيلة، أو العلاقة المريبة بين المرأة والمال والرجال، أو للخيانة مع كيس يهوذا. واستخدمت سينما القرن العشرين في أوروبا المعنى الرمزي والنفسي والواقعي للحقيبة في الأفلام السينمائية. ونجد أمثالاً لذلك عند المودوفوار في حقيبة الموضة في فيلم الكعوب الرفيعة Talons aiguilles وعند ستيفنسون في الحقيبة العجائبية لماري بوبنز Mary Poppins، وعند آنييس فاردا في حقيبة التشرّد في فيلم «لا سقف ولا قانون» Ni toit ni loi وعند هيتشكوك في حقيبة المكتب في فيلم «لا ربيع لمارني» Pas de de printemps pour Marnie.

ج- «الكيس» في الشرق:

العبّ: قد يكون المثل الشعبي المتداول «خلي مخزنك عبّك» أصدق تعبير عن الموقع الذي كانت تحمل فيه النساء أموالها. وقد أخبرتني سيدة لبنانية مسنّة من جبل لبنان أنها كانت حتى خمسينيات القرن العشرين، تخبئ نقودها، حين تخرج للتسوق، في حمالة صدرها، مثلها مثل العديدات من سيدات جيلها، وكانت لا تجد حرجاً في ادخال يدها في عبّها لدفع قيمة مشترياتها والتي كانت غالباً من الأقمشة أو مستلزمات الأنوثة من تجار الحيّ الذين يعرفونها.

وقد يكون المثل الشعبي الآخر: «من العبّ للجيبة» دلالة على بقاء المال في يد واحدة، ودلالة على موقع أمين ثان لحفظ المال هو الجيب. ويشكّل تعليق كيس المال بالرقبة أو تعليقه بالزنار استعادة لموقعي الصدر والخصر في الحماية والخصوصية.

في المقابل، كان الرجل يخبئ أمواله في كيس صغير من الكتان داخل طيات حزامه العريض. هذا الزنار الذي كانت تجارته سائدة ومتبادلة بين سوريا ولبنان والأردن وفلسطين وقد تيسّر لي في بداية ستينيات القرن الماضي أن ألتقي تاجراً من الأشرفية كان لا يزال يورّد هذه الأحزمة إلى الأردن والضفة. وهي عبارة عن قماشة طويلة يصل طولها أحياناً إلى ثلاثة أمتار ويزيد عرضها عن المتر، نسيجها قماش دمشقي مقلّم وملوّن، يلفها التاجر على خصره وهو يدور يساعده شخص آخر على طيّها بعناية وتدرّج، ليخفي في عمق طياتها كيس نقوده البسيط والمكتنز بالمال. وفي مرحلة لاحقة عندما أزالت الحداثة ثوب الرجال التقليدي، وبالتالي استخدام هذه الزنانير، أخذت النساء تستفيد من اتساع هذه القماشة التي فقدت وظيفتها، لتخيطها كعباءات واسعة. وربما كان الحزام هو الوسيلة الآمنة لحفظ المال، لالتصاقه بالجسم، عند تنقل التجار في خانات المدن البعيدة. ولذا فإن تعبير «ايدي بزنارك» قد يحمل معنى الاعتماد المادي والمعنوي وحميمية المعاملة.

يظهر هذا الزنار العريض في العديد من محفورات القرن التاسع عشر، حيث نجده فوق الشروال الواسع على خصر أمير من لبنان يعود لسنة ١٨٥٤ وقد علّق به جيب صغير مزخرف، قد يكون علبة للعطوس أو للخردق، أو على خصر الحارس وقد اعتمر فيه خنجراً أو على خصر رجل من أحياء بيروت من بداية القرن العشرين وقد لفّه على قنبازه أو على خصر مكاري وهو الوحيد الذي علق بوضوح كيس نقوده.

في **العبّ**، أو في **الجيب**، أو في **الزنار**، كان التصاق الملكية أو الثروة أو النقود، بالجسد، عند ملاقاة غرباء في الخارج، ضمانة الحماية والسرّ، وكانت أيدي الرجال والنساء حرّة، غير مجبرة على إظهار الثروة أو الامساك الظاهري بها.

البقجة: وهي غالباً قطعة قماش مربعة، تربط من زواياها الأربع المتعارضة، وتحمل باليد عند موقع العقدة. هي «كيس» عرفته بالضرورة الشعوب في مراحل تطوّرها، وسيلة سهلة وعفوية وفي متناول الجميع لنقل الحبوب أو الطعام أو الثياب أو الممتلكات الثمينة.

ولكن البقجة عرفت ثلاثة أنواع من التاريخ في العالم العربي، تاريخاً سلطانياً باذخاً في المناسبات، وتاريخاً شعبياً متنوعاً في الحياة اليومية، وتاريخاً متقشفاً عشوائياً في التنقل والهجرات.

فالبقجة العثمانية، المصنوعة من الحرير أو الساتان الثمين، والمطرزة بخيوط الذهب والفضة المسماة «صرما» وبموتيفات بالغة الدقة والجمال، وبكتابات وخطوط فنية، كانت بقج السلطانات والمحظيات والنساء الثريات وهي الوحيدة التي حفظتها العائلات والمتاحف. كانت أساسية في جهاز العروس، وتستخدم لنقل الثياب أو الجواهر وكل ما هو دقيق وهام وثمين. كانت ثمينة لتحوي الثمين.

أما بقجة النساء العاديات والتي يبدو أن أهم عنصر فيها هو متانة قماشها، فكانت تحملها النساء الشرقيات في الذهاب إلى الحمّام أو تحملها الخادمة أو التابعة أو تحملها النساء المرتحلات والمهجرات، كيساً عملياً، خفيفاً، إنما ينوء بثقل محتوياته.

الشقبان: أو الكيس الذي يُحمل على الظهر، وأحياناً على الرأس، وقد ألصقت به صفة الفقر، وصفة الشحاذة عند النساء «شقبان النوريه» وصفة التجارة الصغيرة المتنقلة على الظهر عند الرجال «الكشة».

والشقبان عبارة عن كيس مستطيل من القماش العادي نراه في رسوم المستشرقين حيث تحمل النساء ثيابها للغسيل على ضفاف النهر، أو نراه على الرأس في صورة أخرى لشوارع بيت لحم.

وقد عرفت الكشه ازدهاراً كبيراً على أكتاف الرجل مع هجرات اللبنانيين إلى أميركا في بداية القرن العشرين، حيث شكّلت الكشة شعاراً للمهاجر اللبناني في

جهده المستميت للبقاء والعيش الكريم، ونرى نموذجاً عنها في التمثال القائم على مدخل مدينة بيروت لتكريم المهاجر الأول.

ولكننا نفاجأ، عند استقرائنا المنمنات الإسلامية، ومحفورات «غرافور» القرن التاسع عشر، والتمعن في لوحات المستشرقين، وحتى في كتاب «وصف مصر» لحملة نابليون، نفاجأ بالوقوع على العديد والمستفيض من تفاصيل الحياة اليومية، ونادراً جداً ما نقع على رسوم لأكياس أو لحقائب نسائية شخصية.

إنما إذا توقفنا عند تقاليد المجتمع الشرقي وعاداته، وطبيعة ثياب النساء، ووضع المرأة الإقتصادي والإجتماعي، لوجدنا أولاً أن صورة الشارع كانت دوماً ذكورية، والمرأة المحصّنة لا تخرج من البيوت إلا نادراً، وان خرجت فإن اتساع ثوبها وغطاءه يخفيان طبيعياً وجود أي جيب أو أي صرّة مال. وان توجهت المرأة إلى الحمّام، فالخادمة هي التي تحمل عنها الصرّة.

وغالباً ما رسمت المرأة وصوّرت داخل البيوت. إذن هي في الداخل لا تحتاج إلى حمل صرّة المال، وقد تكون ثروتها في ملكيتها القائمة وغالباً في الجواهر التي تتزيّن بها وأحياناً داخل الصندوق الشرقي المطعّم والمزخرف.

ومن المستغرب أننا لا نجد في المنمنات الإسلامية، وحتى في القاجارية الفائقة التزيين والتلوين، أي صورة لكيس أو لحقيبة نسائية. كما انه ومن المستغرب أيضاً ألا نجد في لوحات المستشرقين التي عنت بنقل كل تفاصيل الحياة المترفة والعادية، وكل تفاصيل ثياب واكسسوارات النساء في الشرق أي شكل لكيس أو لحقيبة.

فالمرأة الثرية المدلّلة داخل البيوت والمرأة المحظية و«الأوداليسك»، تؤطر طبيعياً بين الاركيلة، والمروحة، والقهوة، والخادمة السوداء المطيعة، وتتمدد مظاهر ثروتها على ثيابها وفي جواهرها الثمينة، وفي البعض القليل من اللوحات نجد قربها الصندوق الخاص الصغير الذي يمكن أن يمثل للمرأة داخل الأسوار ما تمثله الحقيبة للمرأة في الخارج.

لكننا في اللوحات الاستشراقية كما في المحفورات، نجد أيضاً نساء خارج البيوت، لكنهن النساء العاملات، الفقيرات، الكادحات، الناسجات، بائعات الخبز أو الماء والأمهات المثقلات بهمّ أولادهن.

ونلحظ بالتالي أن نساء العمل والفقر لا يحملن كيساً للمال، انهن يحملن القفّه

أو السلة أو جرار الماء أو الاثنتين معاً كما نرى في صور فوتوغرافية من القرن التاسع عشر.

والجرّة نموذج تاريخي متكرر يحمل دلالة الحياة العادية، وانتقال النساء المقبول والمبارك خارج البيت لتوفير الماء للعائلة، كما يمثّل خروجها الوظيفي و«الأخلاقي» الوحيد. لقد رافقت الجرّة أيدي النساء، في الرسوم الأثرية القديمة ومنذ أسطوره باندورا حتى نساء القرى على العين ومن محفورات المستشرقين حتى لوحات الفنان عمر الأنسي بقيت هذه الصورة تتردد كلازمة في كل الأغاني اللبنانية والشعبية حتى القسم الأول من القرن العشرين.

٤- مجتمع «أكياس» متنقلة:

حيال هذا المجتمع الحضري والريفي، كان هناك المجتمع البدوي المتنقل المترحل الذي يعتمد أساساً على حقائبه وأكياسه والتي تتمحور حولها موارده الاقتصادية وعاداته الاجتماعية وجماليات حياته.

وحسب التقاليد، فالرجال والنساء، يحملون أو ينقلون أكياساً لكل منها وظيفته الخاصة. فهناك أكياس خاصة لحمل المصحف ونقل البخور، وللأعشاب الطبيّة والشاي والقهوة والبلح والرزّ والعملات وخاصة الملح كما وجدنا أكياساً من الجلد بدون خياطة تسمى كبريت لأنها تحوي أعواد الثقاب أو أحجار الصوان.

ونلاحظ أن العديد من الأكياس مستطيل الشكل، بشرائط طويلة تسهل حمله، وقد صنعت من جلد الجمال أو نسجت كما ينسج السجاد، وكأنها سجادة صغيرة منمنمة. ولا يفوتنا أن حرفة الحياكة كانت غالباً من عمل النساء، ولذا فإن ذوق النساء وابداعهن وحفظهن للزخرفة التقليدية هو الذي زيّن هذه الأكياس.

ان حرفة السدو مثلاً في الكويت، وهي حياكة ملوّنة مزخرفة، تقوم بها النساء سواء في نسج الخيمة أو في نسج العدول، وهي أكياس لحفظ الطعام، أو في نسج المزاود وهي أكياس لحفظ الثياب.

ونتوقف عند كيس يظهر لنا أسلوب النسج البدوي المتداول والمتميز بالمثلثات المتلاقية، وعند كيس آخر صنع من جلد الجمل المصبوغ باللون النيلي وزيّن بإضافات قطنية ودوائر حريرية وحلى فضية وشراريب القماش الملوّن، وقد طرزت عليه المثلثات الثلاثة التي تشبه ما نجده على ثياب عسير المطرّزة.

ونجد نموذجاً لكيس قبيلة بني سالم في الحجاز وقد زيّن بأزرار قمصان بيضاء وبإضافات من قماش أحمر وبصفوف من الحلى الفضية وشراريب الصوف، وهو كيس بالغ الزخرفة يستخدم أيضاً إضافة لصفته الوظيفية، بتعليقه على عمود أمام الخيمة لإعلان مناسبة أو حدث.

عدا الأكياس التي كانت توضع على ظهر الحيوان عند الانتقال والترحّل، فحضارة البدو والقبائل، حضارة «أكياس» وحقائب يحملها الرجال والنساء معاً على السواء، وهي تحمل ثروة الجميع وشروط بقاء القبيلة متحالفة مجتمعة.

في المغرب، نجد فوق الثياب التراثية للرجال، «الزبور» المطعم بزخارف من الجلد الملوّن المقصوص والمطرّز ونجد «العقرب» وهو كيس مستطيل واسع الانتشار عند القبائل و«الشكارة» وهي كيس بشرائط طويلة يعلّق على الكتف، ويرافق الثوب المغربي التقليدي، ونجد الآن منه نماذج فائقة الثمن.

٥- حقيبة اليد، تاريخ جديد، تاريخ آخر:

كانت حقيبة اليد النسائية الخاصة، قد عرفت باكراً في أوروبا وتنوّعت أشكالها ووظائفها.

لكننا في الشرق لا نستطيع أن نتكلم عن حقيبة نساء حديثة إلا مع هبوب رياح الغرب التي تأثر بها لبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر والتي تجذّر تأثيرها طوال القرن العشرين.

يذكر سمير قصير في كتابه «تاريخ بيروت»، ان معالم الحداثة ارتسمت في بيروت نتيجة الاتصال بأوروبا منذ منتصف القرن التاسع عشر، وتجسّدت في أساليب الهندسة المعمارية وأثاث البيوت والسلوكيات الجديدة، وخاصة في تبدّل اللباس، فحققت الموضة الأوروبية وخاصة الفرنسية تقدماً حثيثاً بالتزامن مع صعود البورجوازية التجارية، وتجذّر تأثيرها في مرحلة الانتداب الفرنسي.

فمنذ بداية القرن العشرين ظهرت في الصحف اللبنانية اعلانات لمحلات Au petit bon Marché في سوق إياس التي استحضرت من المعامل الأوروبية بضائع جديدة ومنها كما تذكر بالإسم «جزادين وشنتات».

ولكن إذا عدنا إلى التأريخ الفوتوغرافي لهذه المرحلة، فإن صور النساء في الخارج لا تظهرهن مع «الجزادين» في الصورة الرسمية لعائلة غي بارا بالثياب

الطويلة الرائجة في بداية العصر سنة ١٩٠٦ أو في صوره لأوائل الجامعيات المتخرّجات من الجامعة الأميركية سنة ١٩٢٧ أو في ما وضح في صورة النساء الأنيقات بالقبعات الأوروبية في سباق الخيل في بيروت سنة ١٩٣٣.

يبدأ ظهور الحقائب النسائية اليدوية بوضوح في الصور الفوتوغرافية في لبنان، في أيدي نساء أجنبيات. ففي صورة من ١٩٢٣ نجد سيدة ترافق المندوب السامي الجنرال فيغان وبيار بنوا، وهي تضع على رأسها قبعة وتحمل بيدها حقيبة مستطيلة الشكل بشكل بوشيت Pochette الرائجة في العشرينيات. وفي صورة من سنة ١٩٣٩ نجد مدام بيو زوجة المندوب السامي مع حقيبتها في زيارة للست نظيرة جنبلاط، وفي صورة من سنة ١٩٥٢ نجد السيدة اليانور روزفلت تتفقد أوضاع الصناعة اللبنانية وهي تحمل بيدها حقيبة كبيرة ذات مقبض قصير.

نعود في الثلاثينات إلى صورة المؤتمر النسائي الرابع سنة ١٩٣٠ في مدرسة الصنائع وقد ظهرت فيه بعض النساء تضع على رأسها القبعة الرائجة بشكل جرس وتحمل حقيبة اليد العصرية التي تظهر أيضاً في أيدي النساء في اجتماع نسائي آخر سنة ١٩٣٥.

من الأربعينيات نتوقف سنة ١٩٤٧ عند صورة للرئيس شارل حلو سفيراً لدى الفاتيكان برفقة زوجته التي تحمل حقيبة تؤرخ لطراز تلك المرحلة.

في الخمسينيات، ومع تأسيس مهرجانات بعلبك، ظهرت الأنيقات اللبنانيات في صور عديدة برفقة الرئيس كميل شمعون وزوجته، يمسكن بالحقيبة الأنيقة، ويلقين بالشال على الذراع، أو يحملنها على الحضن في الجلوس أو يعلّقنها بالكتف والذراع في زيارة سياحية نهارية لقلعة بعلبك.

في الستينيات وما بعد، ازداد التأثير الأوروبي وازداد استيراد الحقائب التي تنوّعت أشكالها فتلوّنت مع موضة الهيبية، وتكرّست بعد ذلك في أيقونات الموضة الكلاسيكية. فكانت شوارع بيروت تشابه شوارع باريس في الأناقة والجمال وكانت بداية خروج العديد من النساء للعمل الذي كان امتيازاً لمن توفر لهّن التعليم.

مع ازدياد حضور حقائب النساء في شوارع المدينة في السبعينيات وهي تحمل آخر صيحات الموضة العالمية، حصل الانكسار الكبير، إذ بدأت الحرب الأهلية، فكنت ترى أمام الأفران الشعبية صفوف النساء، تحمل الهمّ على جبينها وتحمل على ذراعها آخر موديلات حقائب باريس، وكنت ترى أمام البيوت المهدّمة، عجوزاً

متجلببة بالأسود تعاين الخراب وتحمل بيدها حقيبة جلدية عصرية ثمينة، كما كنت ترى على خطوط التماس سنة ١٩٨٨، في صورة واحدة نساء يحملن حقيبة يد نسائية عصرية مع أكياس من النايلون، ورجالاً يحملون حقيبة سامسونايت يدوية ويجرون حقيبة سفر مع عائلة هاربة من القصف.

فلنلق نظرة اليوم على الشارع في لبنان، كما على كل شوارع العالم. لن نجد امرأة بدون حقيبة يد، وبالتحديد يرافق هذه الحقيبة كيس من النايلون أو من الورق يحوي ثياباً أو كتباً أو مؤناً، وكأنه المرادف أو المرافق الطبيعي لحقيبة المدينة.

ومع تطوّر صناعة الحقائب وانتشارها الكاسح، تنوّعت طرق صناعتها وطرق تقليدها، خاصة في البلدان التي تتقن تاريخياً صناعة الجلد كالمغرب ومصر، والتي تمتلك مهارة مهنية كمنطقة برج حمود في لبنان، فنمت صناعة متقنة وموازية، تبتدع، تنقل، أو تزيّف وتؤمن لكل النساء، مهما كانت قدراتها الاقتصادية، اقتناء حقيبة تحمل روح العصر، أو تشابه حقائب شانيل وديور وفويتون وغوتشي بثمن متهاود ومقبول.

ومما طوّر في هذه الامكانات ازدهار صناعة النسيج والمواد البلاستيكية التي أنتجت الجلد والفرو والنسيج الاصطناعي الأقل ثمناً والأكثر رواجاً والأكثر اغراء في تسارع الموضة وتبدلها المستمر...

لنلق من جديد نظرة على الشارع في لبنان! لن نجد امرأة بدون حقيبة يد، وبالتحديد نكاد نجد بصعوبة موديلاً واحداً في كل الأيدي النسائية التي «تشخصن» حقيبتها انطلاقاً من شخصيتها.

ولكن ما يمنع القراءة المتتالية لتاريخ الحقيبة النسائية في لبنان وفي العالم العربي، فقدان حقائب جداتنا القديمة إلا ما حفظه الحنين، وغياب المتاحف التراثية وندرة المجموعات الخاصة، وغالباً ما نقع بالصدفة على نماذج كحقيبة قماش زهرية صنعتها بيدها امرأة جنوبية لعرسها حوالي سنة ١٩١٠ وحفظتها حفيدتها كذكرى عائلية، أو لحقائب جلدية ثمينة حفظتها الصدفة والخزائن القديمة العائلية.

ولم تستخدم السينما العربية بعد رمزية الحقائب النسائية في الأفلام والمسلسلات ولم تظهر سوى حقائب السفر والهجرة في الروايات العربية المعاصرة.

ان انتشار الحقيبة النسائية الخاصة في القرن العشرين في كل شوارع العالم، إنما ترافق مع خروج المرأة من البيت، وتعليمها، وعملها، وتحررها، وامتلاكها للمال

الخاص الذي تنفقه أو تحجبه حسب إرداتها، حيال العالم الخارجي المستثار بالسرّ الذي تحويه حقائب النساء من جهة وبحرمة هذا «الكيس» من جهة أخرى.

ولم تعد الحقيبة للمناسبات، بل أصبحت حاجة يومية، للعمل، للتسوّق، للأناقة، وبالرغم من رواج موضة حقائب الرجال المعلّقة بالكتف في السبعينات، أو حقائب السامسونايت الوظيفية، فقد أصبحت اليوم حقيبة اليد صفة نسائية، تحملها أيدي النساء فقط وتبدّلها مع تبدّل موضة كل مرحلة.

٦- مقابلات ونساء وحقائب:

في محاولة لرصد مواقف النساء من حقائبهن، وردود أفعالهن، أجريت أربعين مقابلة مع أربعين امرأة لبنانية ينتمين إلى طبقات اجتماعية، وأجيال، ومناطق ومهن مختلفة. ركّزت المقابلة على مقاييس شراء الحقيبة، وعدد الحقائب، والألوان المفضلة، وترتيب الحقيبة أو عفويتها، ومحتوى الحقيبة، ومال الحقيبة، والموقف والشعور والتعلّق والتخلي.

وشكّلت الأجوبة مروحة كاملة من امكانات التأويل واستقراء الدلالات، ولفرادة بعضها أتوقف عند أهم الاجابات:

في اختيار الحقيبة:

– عندما اشتري حقيبة، أتردد طويلاً وأفتش طويلاً، وعندما أجد غايتي أقول: هذه أنا!

– كثيراً ما تنهار مقاومتي أمام حقيبة فانتازي. لن أحملها إلا في مناسبات قليلة، فأحفظها – للتعويض – طويلاً في خزانتي حتى بعد زوال موضتها.

في الموقف من الحقيبة:

– حقيبتي تعطيني الأمان أمام سرعة الأحداث. عندما أمسك بها أحس انها تكلمني، ولا أتخيل نفسي خارج البيت بدونها.

– حقيبتي الواسعة هي بيتي المتنقل والتي تعلّمني بأننا في الحياة نستطيع الاكتفاء بالأساسي والاستغناء عن أشياء كثيرة.

– أحبها كثيراً.. أعتقد انني أضعها في حضني وأغمرها بذراعي خلال النهار أكثر مما أغمر زوجي وأولادي.

– حقيبتي؟ المهم أن تكون واسعة، بسيطة، تناسب كل وقت، لا تهمني الموضة ولا المناسبات، فلا أضطر لتبديلها مع كل ظرف.

– أنا كالحيوان الأليف، أعرف حقيبتي وأنا مغمضة العينين، من رائحتها.. آه.. رائحة الحقائب.. وخليط محتواها..

– أنا الآن في الستين من عمري ولكني لا أزال أحتفظ بحقيبة يد من خمسينيات القرن الماضي، كانت في جهاز عرسي... أنظري، انها من الجلد الحقيقي العريق، وقد حملت مثلها ممثلات السينما في ذاك الوقت.

– أخاف عليها كثيراً من السرقة، لا بسبب محتواها، بل بسبب سعرها المرتفع الذي دفعته لأشتريها. أحياناً كي لا أثير شهية النشالين، أضعها في كيس نايلون من التعاونية وأمشي على الطريق وأنا أحمل كنزي في كيس النايلون الرخيص.

وتستفيض النساء في الحديث عن محتوى الحقيبة:

– ماذا وضعت في هذه الحقيبة؟ عندما أبدّل حقيبتي لتتناسب مع حذائي، أنسى نصف أغراضي.

– أضع فيها كل شيء.. كل شيء.. طبعاً المال، ولكن ربطة الشعر، فواتير السوبرماركت، ورقة موقف السيارة، حلق صغير اشتريته للتو.. كل من ينظر داخل حقيبتي يعتقد انني متشردة أنام دوماً خارج بيتي أو أنني قلقة ومستنفرة أمام كل طارئ.

– كل شيء.. كل شيء.. وأسميها بقجة النورية وأحياناً جراب الكردي.

– سأفتحها أمامك وأعدد لك محتواها: نظارات شمس، نظارات للقراءة، أجندة، قلم، تلفون خليوي، دفتر صغير، مفاتيح البيت، مفاتيح السيارة، مشط، أدوية لوجع الرأس، أدوات ماكياج، مرآة صغيرة، بطاقة هوية، بطاقة الضمان الصحي، محارم ورقية، بالطبع، دفتر شيكات، بطاقات مصرفية ومحفظة تحمل صورة أحفادي ونقوداً قليلة.

– أحياناً أستعيد حقيبة قديمة كنت قد تركتها جانباً بسبب بعض البقع على أطرافها.. أذكر انني كنت قد قررت اعطاءها لشقيقتي ثم عدلت عن الفكرة. أستعيد هذه الحقيبة، أطلب منها أن تغفر لي تجاهلي، أنسى ما تعاني منه من تشقق على جلدها بسبب رطوبة خزانتي، أحبها من جديد، أفتحها أجد فيها بطاقة سينما لدخول

فيلم في صالة أقفلت الآن في الحمرا، تذكرني بصديق قديم، وحبتي دواء لم أعد أعرف أسمهما، وبطاقة شخصية تحمل أسماً وعنواناً لشخص لم أتصل به أبداً، وورقة خمس ليرات قديمة، عفا الدهر عنها وأصبحت صالحة للمتاحف.

– أذكر حقائب مرحلة الحرب.. كل شيء حتى القطن والسبيرتو وطلاء الأظافر ودواء السعلة، وجوارب وألبسة داخلية صغيرة، وقنينة الماء والباسبور وبطاقات توصية، واحتياطاً حبوباً مهدئة للأعصاب، وخاصة كمشة من الليرات والدولارات.

٧– الدلالات:

ان استقراء هذا التاريخ الموجز وهذه الشهادات المعبّرة، تقودنا إلى التوقف عند الدلالات التالية:

أ– انتقال النساء من زمن الحيز الخاص إلى زمن الحيز العام:

يؤرخ ظهور حقيبة اليد النسائية في القرن العشرين وانتشارها في أيدي كل الطبقات والأعمار، لزمن استقلالية النساء، وخروجهن من حيز المنزل إلى حيز الشارع والمدينة، كما يؤرخ لخروج النساء إلى العمل ولحيازة المال الخاص، وبالتالي لحرية التصرف بهذا المال. وقد تكون صورة المرأة التي دخلت مجال العمل قسراً خلال الحرب العالمية الأولى والتي حملت حقيبتها معلّقة بالكتف لضرورات عملية ووظيفية، بداية انطلاق لمفاهيم الاستقلالية وكسب المال الخاص والتفرّد باستخدامه.

الآن تشكّل حقيبة اليد النسائية دلالة استقلالية معاصرة، بعد دمقرطتها وانتشارها في كل شوارع العالم حيث فقدت الكثير من علائم انتمائها المحلي وتشابهت غرباً وشرقاً في أحجامها وألوانها وزخارفها ومواد صنعها.

ب– قماش، قش، جلد، نايلون، عراقة وتزييف:

لقد امتحن تاريخ الحقيبة المواد المتينة المتاحة في كل زمن، لاحتواء كل ما اعتبره الإنسان ثميناً. فمن جيب القماش، إلى القش المضفور، إلى الجلد، إلى كل المنتجات البلاستيكية، ترافق تطور الاكتشافات التقنية مع تطوّر مواد الحقيبة وأحجامها وألوانها وزخارفها وأقفالها.

وعندما أدركت بيوتات الأزياء، بأن هذا «الكيس» أساسي بالنسبة إلى النساء،

انتزعته من أيدي عمال الجلد وطوّرت جمالياً في أحجامه وموضته وطرق إقفاله.

احتفظت الحقيبة الجلدية ذات الانتماء إلى دار أزياء شهيرة بمكانتها وثمنها الباهظ، مما أفسح في المجال لسوق عالمي للتزييف استطاع أن يؤمن حلم الامساك والتماهي بحقيبة شهيرة لدى كل نساء العالم.

ج- بين العبّ والجيب.. والصندوق والحقيبة:

نستطيع اعتبار الحقيبة النسائية اليوم، سليلة العبّ والجيب والصندوق، إذا اعتبرناهم معاً امتداداً لملكية النساء الشخصية لكل ما هو ثمين.

فالعبّ هو الوسيلة البدائية الأولى ونكاد نقول الغريزية عند النساء لحفظ ما هو ثمين بالقرب من موقع الصدر بما يحمله هذا الموقع من دلالات الخصوصية والتحريم. وما يُحفظ في العبّ يلتصق بالجسم لا يفارقه إلا بإرادة اليد التي وضعته.

والجيب الذي شكّل قسماً من الثوب النسائي، هو كيس مخفي، غير ظاهر للخارج، يحوي ما تحتاجه النساء في حياتها اليومية، هو لين، طريّ يتحرك مع حركتها، والأهم من ذلك انه لا يفارقها حتى مع انشغالها بأي عمل. «واصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب» من أمثالنا المتداولة.

أما الصندوق، وان حفظ في البيت في موقع لا تصل إليه دوماً الأنظار، فهو يحوي الكنوز الدائمة التي لا تحتاجها المرأة يومياً ومنها الحلى والمال المقتصد، ولكن الصندوق جامد لا ينتقل ولا يرافق تنقلات النساء.

أما الحقيبة، فهي العبّ والجيب والصندوق معاً، تحمل من الصندوق الصلابة والكتمان، ومن العبّ والجيب سهولة الانتقال، دون أن تحمل من الصندوق جمود المقام ومن العبّ هشاشة الحفظ ومن الجيب حركة الجسد.

أما الاختلاف الكبير فهو أن الحقيبة معروضة للنظر ومستجلبة له. فنحن قد يخفى علينا محتوى العبّ، وقد نتكهن بوجود الجيب، وقد نعتقد بوجود الصندوق، ولكننا نعاين الحقيبة. فالجيب والصندوق كما يصفهما باشلار هما داخل – داخل، أما الحقيبة فهي خارج – داخل أي انها شكل يعرض للعين دون أن يقدّم محتواه إليها.

ولذا تحمل الحقيبة النسائية المعاصرة دلالات عبّ الفقيرات، وجيب العاملات، وصندوق الثريات، من خلال المفاهيم الحديثة لمعاني الملكية والفردية والاستقلال.

د- علاقة الداخل بالخارج، السريّ بالمباح:

تبدو الحقيبة النسائية بما تحمله من دلالات وكأنها في جدل الافصاح والاخفاء، فكل حقيبة امرأة في الشارع، دلالة على انها تملك شيئاً لا تريد الكشف عنه، حتى لو لم يكن هذا الشيء يحمل قيمة ما. فهذا الفراغ المخفي هو السرّ، هو المخيلة، هو الشيء الخاص والممنوع.

ان الحقيبة تعرض نفسها للعين كاختزان للثمين، موحية بمحتواها، أو موهمة بمحتواها، دون أن تكشف عنه، وفي هذا التضاد تقارب الحقيبة السرّ، والغواية، والسلطة.

هـ- الحقيبة والجندر:

أن تكوني امرأة معاصرة – ولا فرق بين عاملة وطالبة وسيدة منزل – يعني أن ترافقك حقيبة يدك في كل حل وترحال.

لذا، تضعنا الحقيبة حيال التساؤل عن الجندر أو النوع، وجنسية الاشياء أو الأشياء الخاصة بكل جنس، والتي تمتلكها المرأة كصفة خاصة بها.

في هذا المجال، تبدو الحقيبة اليوم وكأنها صفة جنسية إضافية، صفة أخرى للنساء، علبة أنوثة تمتلك الجاذبية، وفي ذات الوقت تمتلك قدرة الدفاع عن النفس، حيث لا تجرؤ يد غريبة أو قريبة على فتح حقيبة امرأة إلا بإرادتها.

و- دينامية الحقيبة:

ليست الحقيبة اكسسوار زينة أو كيساً وظيفياً، أو قطعة ثابتة بمعزل عن اليد التي تحملها. فللحقيبة ديناميتها الخاصة والفريدة في التفاعل مع المرأة التي تحملها ومع الأشياء التي تحتويها.

ان الحقيبة سجل متواصل لدقائق حياة المرأة في عاداتها وفي مخيلتها، في واقعها وأحلامها، في صدقها وأوهامها، فهي التي تفرض على المرأة الاكتفاء بالأساسي، وتمتحنها دوماً بين الانتصار على بعثرة الأشياء أو الاسترخاء إلى بعثرتها في هذا المجال السريّ.

ان حقائب النساء هي مغارة آمال وأموال، وأوهام وأحلام، وبهذا المعنى فهي حقائب عميقة الغور بلا قعر.

ز- أخلاقيات «كيس» المال:

ان العلاقة بين «الكيس» ومحتواه، جعلت الحقيبة تكتسب معناها من المتخيّل المرتبط بما يمكن أن تحتويه، أي المال.

إن كل كيس يحتوي على المال كان تاريخياً مجال تبرير أو شبهة. وإذا استعدنا بعض اللوحات الفنية، لوجدنا «صرّة» مال أخوة يوسف الذين باعوه للتجار، و«صرّة» مال يهوذا الذي باع المسيح و«صرّة» المال في رسوم كاريكاتورية منذ القرن السادس عشر للتعبير عن تداخل المال مع حروب الأديان.

وعندما يرتبط كيس المال بالنساء، تعطى لأول حقيبة تحملها النساء اسم Aumôniere أو كيس الاحسان للتعويض بالتصدّق على الفقراء تكفيراً عن «خطيئة المباهاة» بحمل المال.

ولا تخلو اللوحات الفنية من تجاور كيس المال والنساء مع الغواية والجنس، ومبادلة اللذّة بالمال. لذا ، كان حمل المرأة لحقيبة اليد الخاصة، وحتى عشرينات القرن العشرين، يحمل معنى الخروج على التقاليد، والحرية المريبة.

ح- علاقة الحاوي بالمحتوى:

كانت الحقيبة القديمة «كيساً» بسيطاً من القماش أو الجلد، يتميز بصفة المتانة وصحة الاغلاق وحفظ الملكية، ويحتوي على مجوهرات أو ليرات ذهبية أو أموال، تتعارض قيمتها الكبيرة مع تواضع هذا «الكيس». كان المحتوى أثمن بكثير من الحاوي.

ولكن الحقيبة المعاصرة التي تطوّرت في صناعة موادها وأشكالها، أصبحت غالية الثمن، وعلامة انتماء إلى طبقة، تحولت إلى رمز وموقع اجتماعيين، ويكاد ثمنها يتخطى قيمة المال الذي تحفظه. أصبح الآن الحاوي أثمن من المحتوى.

ولكن المال تبدّل في صوره المادية اليومية. فبعد ليرات الذهب الرنانة ووزنها الكبير، وبعد العملة الورقية والنقدية، وبعد دفاتر الشيكات الكبيرة، تحولت ملكية المال الآن داخل الحقائب إلى بطاقات ائتمان صغيرة، إلى مال افتراضي لا يثقل الحقيبة إنما ينبئ بثروة حاملتها.

ط- من يفتح الحقيبة؟

ان هذه الحقيبة المغلقة على أسرار أو ملكية أو أوهام النساء، أصبحت الآن

تفتح قسراً أمام عيون الغرباء، سواء في المطارات، أو في الشارع أمام المؤسسات الكبيرة وكأنها المخبأ المخيف الذي يمكن أن يحمل أكثر الأشياء رهافة وحميمية وأكثر الأشياء عنفاً.

وفي مراقبة لطريقة فتح كل امرأة لحقيبتها أمام حاجز تفتيش، نستطيع التقاط ردود أفعال صامتة ومواقف استنكار مضمر حيال هذا النظر الطارئ والغريب والمستبيح للسرّ. وكأن متطلبات الواقع والأمن، تكسر الأسطورة والحلم.

ي- أبعد من المال.. حقيبتي أنا وأنا حقيبتي:

أصبحت الحقيبة اليوم امتداداً طبيعياً ليد المرأة ولجسدها. ولذا فإن أصعب صرخة تطلقها المرأة برعب هي: أين حقيبتي؟ فالحقيبة اطمئنان واكتمال وكأنها البيت الثاني المتنقل الخفيف الحمل. فالحقيبة «بدوية» رحّالة ولو كانت بين أيدي نساء المدن، مصيرها الانتقال والخروج والعودة، لذا فهي دعوة حرية أو وهم حرية مدجّن.

والحقيبة مخيال الأنوثة المعاصرة، لذا يتوازي التأكيد على تماهي شخصية المرأة بحقيبتها مع التكهن بوجود مالها في هذه الحقيبة.

ان المقاربة التاريخية والأثرية والانثروبولوجية والجمالية والتقنية والواقعية المعاصرة للحقيبة، وبالتحديد للحقيبة النسائية، من خلال تنوّع الأشكال والمواد والزخارف والوظائف، تضع الحقيبة النسائية في مصاف «أشياء» القرن العشرين التي أرخّت لاستقلالية النساء ولخروجهن بثقة إلى الحيز العام، بعدما تعولمت بأيدي نساء مدن العالم، وتحوّلت إلى علامة ثقافية وجمالية، إلى سلطة امتلاك، إلى حلم ارتحال، إلى سرّ انثوي، إلى وعد اطمئنان...

* * *

لقد بدأت بصورة وأختم بصورة..

لم يكن اجتياز القرن العشرين سهلاً على نساء الدول التي عانت من الحروب والهجرات المتواصلة، ولم تكن حقيبتها دوماً رفيقة عمل أو غوى. ولذا أتوقف عند صورة فوتوغرافية معاصرة لامرأة هاربة من القصف والعنف، تمسك بحقيبتها وتحميها وكأنها تمسك باحشائها، في حركة غريزية بعيدة كل البعد عن أناقة حمل الحقيبة في شوارع المدن، حركة تعبّر عن معنى الحقيبة في مواجهة الخطر والترحيل، حركة نعرفها نحن نساء البلدان التي تعرّضت للحروب والهجرات... حركة احتضان الحقيبة كطفل عندما يضيع كل شيء!

المراجع

- جلاّد ادغار (اعداد)، ابجد هوز ، **مدارس لبنان من تحت السندبانة الى العالم**، رعيدي، بيروت ٢٠٠٥.
- ساسين فارس وسلام نواف (اعداد)، **لبنان، القرن في صوّر**، دار النهار بيروت ١٩٩٩.
- يميّن محسن، **لبنان الصورة**، جروس برس ١٩٩٤.
- يميّن محسن، **بريد الشرق**، شمالي وشمالي، بيروت ٢٠٠٣.
- فاخوري عبد اللطيف مصطفى، **منزول بيروت**، بيروت ٢٠٠٣.
- فاخوري عبد اللطيف مصطفى وعيتاني مختار، **بيروتنا**، دار الانيس.
- قصير سمير، **تاريخ بيروت**، دار النهار، بيروت ٢٠٠٦.

BACHELARD, Gaston, *Poétique de l'espace*, PUF, Paris 1957.

BORELLI, Laird et STEELE, Valérie, *Sacs Langages du style,* traduit de l'anglais par Solange Roussat, Edition du collectionneur, Paris 1999.

CALAME-GRIOLE Geneviève et GOROG-KARADI, *La calebasse et le fouet: Le thème des objets magiques en Afrique Occidentale*, Cahiers d'Etudes Africaines, 45, vol XII, 1er cahier 1972.

CHENOUNE, Farid (sous la direction), Le cas du sac. Hermès, Union Centrale des Arts Decoratifs, Le Passage, Paris, 2004.

DAGOGNET, François, Rematérialiser : *Matières et matérialisme*, Paris, Vrin, coll. Problèmes et controverses, 1985.

FRITSH, Julia, *Objets du voyage et du commerce au Moyen-âge*, Un mois une œuvre, Musée National du Moyen-âge, thermes et Hôtel de Cluny, janvier 2004.

GAY-PARA Jean-Prosper, *La traversée du siècle*, vol 1- 1840-1914, Presses Raidi, Beyrouth.

Les Orientalistes au Liban, vol 4, ed. RAC, Beyrouth.

PICOT Geneviève et Gérard, *Le sac à main, une histoire amusée et passionnée*, éditions du May, Paris 1993.

SEHNAOUI, Nada, *L'occidentalisation de la vie quotidienne à Beyrouth*, 1860-1914, Dar an-Nahar, Beyrouth 2002.

SEYDOU, Christiane, *Une dialectique de l'ex et de l'in ou le motif du sac dans les contes de l'Enfant Terrible*, in Histoires d'enfants terribles : Afrique noire, étude et anthologie, G-P Maisonneuve et Larose, Paris 1980.

THORNTON, Lynn, *Les orientalistes, la femme dans la peinture*, ACR editions, Paris 1989.

اللوحة ١:

من اليسار: قصر أشورنازربال II، القرن الثامن – ملعقة مصرية خشبية، الإمبراطورية الحديثة – زوس وهرمس على آنية يونانية – موزاييك رومانية، القرن الثالث ب.م. – صرّة من الجلد، روسيا، القرن ٤ ق.م. – أكياس السحر في غينيا الجديدة، نهاية القرن ٢٠ – رسم في قصير عمرا الأموي، القرن ٨ – مقامات الحريري، القرن ١٣.

اللوحة ٢:

من اليسار: جيب قماش يربط بالزنار، بداية القرن ٢٠ – كيس يحمل على الذراع، القرن ١٩ – كيس الاحسان، القرن ١٩ – كيس البخيل، القرن ١٩ – مجموعة حقائب من القرن ١٧ حتى ٢٠ – من أيقونات الموضة: هرمس ١٩٣٠، شانيل ١٩٥٥، لايدي ديور ١٩٩٥ – طريقة حمل الحقيبة النسائية من ١٩٠٠ حتى ٢٠٠٠ – نساء أفريقيات في النيجر ١٩٧٨.

اللوحة ٣:

من اليسار: منمنة فارسية، القرن ١٦ – حراس من لبنان، القرن ١٩ – جزائريات إلى الحمّام، لوحة للمستشرق بيسبروك – بقجة عثمانية – الغسيل على النهر، لوحة للمستشرق جول توبان– بائعات الماء والبرتقال في مصر للمستشرق فيلكس كليمان، القرن ١٩ – راقصة في مقهى جزائري لوحة للمستشرق جيرادي – بيت مغربي، لوحة للمستشرقة كلايس هرسيغ.

اللوحة ٤:

من اليسار: كيس يدوي من البادية السورية – أكياس بدوية للمال والزينة – اعلان لجزادين وشنط في سوق أياس – الرئيس شارل حلو وزوجته – الوقوف أمام الأفران خلال الحرب – تفتيش الحقائب – مادلين رينو في مسرحية آه أيتها الأيام الجميلة – امرأة مهجّرة مع حقيبتها.